أحوال الأمم عند بعثة النبي

وبرغم الصفات التي اتسم بها العرب –وذكرنا أهمها في الفصل السابق – إلا أن حكمة الله تعالى قضت أن يجعل آخر رسالات السماء تنزل على محمد بن عبد الله العربي القرشي ، وأن يحمل العرب هذه الرسالة الخاتمة لينشروها في الآفاق وينافحوا عنها ويدخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجاً ، وتصير كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فترى لماذا اصطفى الله تعالى العرب دون سائر الأمم يبعث منهم رسول آخر الزمان ؟ ولماذا اصطفى من العرب كنانة ؟ ولماذا اصطفى من كنانة مناف ؟ واصطفى من كنانة قريشاً ؟ واصطفى من قريش بني هاشم ؟ واصطفى محمداً ﷺ من بني هاشم ؟

يقول النبي في صحيح مسلم وغيره : " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ "

لماذا بعث الله آخر أنبيائه من العرب ؟

بداية لا بد أن نقرر أن الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]

فالله تعالى لا يسأله سائل عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء ... لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه ، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده .

وكذلك الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ومن يصلح لها من خلقه .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

لكن نحن نحاول أن نبحث عن الحكمة ونستكنه سر هذا الاختيار .

ونبدأ بالإجابة عن السؤال الأول ، بماذا امتاز العرب قوم خاتم الرسل الكرام ، فَفَضَلوا به غيرهم من الأقوام ، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام ، الذي اشتمل عليه دين الإسلام ، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام ، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام ؟

الجواب : كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرية الشخصية، أيام كانت الأمم تَرْسُفُ في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية ، محظورًا عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية ، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية ، كما حظرت عليها حرية التصرفات المدنية والمالية .

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال ، أيام كانت الأمم مذللة مُسَخَّرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال ، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم ، ويُصرفونها كما يصرفون السوائم لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب ، ولا إرادة لها في عمل ولا كسب .

كانت العرب ممتازة بعزة النفس ، وشدة البأس ، وقوة الأبدان ، وجرأة الجنان ، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرءوسين أضعفهم البؤس والشظف وسادة أبطرهم بغيُ الاستبداد ، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد .

كانت العرب ممتازة بكثير من الفضائل الموروثة والكسبية . كقِرَى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ، والنجدة والإباء ، والسخاء ، والإيثار ، وحماية اللاجئ ، وحرمة الجار . أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية والأنين من ثقل الضرائب والأتاوى الأميرية ، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عمَّ الراعي والرعية . (١)

الإمبراطورية الصينية قبل الإسلام

لقد كانت الإمبراطوريات المعاصرة للإسلام ، الصين والفرس والروم ، قد استنفدت مقومات نهضتها وبقاء سيادتها ، ولم تعد صالحة لحمل رسالة آخر الزمان بعدما فسدت فطرة حكامها وانتكست أخلاقهم وتفشى في شعوبها الوهن : حب الدنيا وكراهية الموت ، وشاع فيهم خنا القول والفعل ، والإسراف في الترف واللهو .

فقد دخلت الحضارة الصينية بعد زوال سلطة سلالة هان سنة ٢٢٠م في دور من الركود والانحطاط، وكان ذلك نتيجة للفوضى التي عمَّت البلاد في الداخل والأخطار التي كانت تهددها من الخارج، فقد ضعفت الحكومة المركزية وأعلن عدد من حكَّام الأقاليم استقلالهم، كما أن قبائل المغول هاجمت الصين واحتلت القسم الشمالي منها.

(١) رشيد رضا من مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

دامت هذه الحال أربعمائة سنة تقريبًا، ركد فيها النشاط الحضاري ودخلت الصين في عهد يمكن وصفه بالقرون المظلمة تشبيهًا بالقرون المظلمة التي سادت أوروبا بعد غزوات الهمج وسقوط روما في أيديهم .(١)

دولة الفرس وديانتها قبل الإسلام

والفرس فلم تكن قط في أي عصر من عصور تاريخها قبل الإسلام دولة ثابتة الحدود إنما كانت حدودها تتسع أحياناً في عصور الملوك الأقوياء، وتنقبض في عصور الضعفاء وهم الأكثرون، وعماد القوة العسكرية الإيرانية كان جماعات مرتزقة من قبائل تركية إلى جانب قبائل الهضبة الإيرانية نفسها. وكان الأكاسرة يسلطون هذه الجماعات المقاتلة على البلاد لإرهاب أهلها وإرغامهم على دفع الجزية والإتاوات.

وبالإضافة إلى بطش الأكاسرة وطغيانهم وإرهابهم الشعوب كانوا مجوساً يعبدون النار في آخر عهدهم فبرغم أن ديانتهم الزرادشتية يعتبرها الكثيرون من الديانات التوحيدية المعروفة في العالم، تأسست منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة فيما يعرف اليوم بدولة إيران على تعاليم زرادشت الذي يزعم أتباعه أنه نبي دعا إلى الإيمان بوجود إله واحد أزلي هو " اهورامزدا " بمعنى "الإله الحكيم" وهو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبداً . كما بشَّر زرادشت بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة، النار والشمس وهما رمزا المجوسية، ولذلك فإن النار مقدسة لكونها تمثيل عن نور أو حكمة اهورامزدا ويحرص

(٢) شفيق جحا ومنير البعلبكي وبهيج عثمان " المصور في التاريخ " فصل الحضارة الصينية: عهد سلالة هان ج٩ ص ٤٥٥ دار العلم للملايين، بيروت .

الزرادشتيون على ألا تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسرونه على أن الزرادشتيين يعبدون النار.

أخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب أنه سُئِل عن أخذ الجزية من المجوس؟ فقال : " والله ما على الأرض أحد أعلم بذلك مني إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه وعلم يدرسونه .. ثم أسرى على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء ."

وذهب جمهور العلماء إلى أن المجوس وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

وسواء أكانت الزرادشتية ديانة سماوية توحيدية في أصلها أم كانت ديانة وضعية ، وسواء أكانت النار والشمس ترمزان لقوة الله أم كانتا معبودتين من دون الله فإن المؤكد إن الفرس في آخر عهدهم قبل أن يفتح المسلمون بلادهم وينشروا فيها الإسلام لم يعرف عن غالبيتهم إلا عبادة النار وقلة مضطهدة منهم كانوا نصارى ؛ وهذا ما حدا بسلمان الفارسي رضي الله عنه أن يترك عبادة النار ويسعى خلف الدين الحق حتى هداه الله إلى الإسلام .

سلمان الفارسي يروي قصته مع الإسلام

يقول سلمان : " كُنْتُ رَجُلاً فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا، يُقَالُ لَهَا: جَيٌّ، وَكَانَ أَبِى دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ (رئيسُ القَرْيَة)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّاىَ، حَتَّى حَبَسَنِى فِى بَيْتِهِ أَىْ مُلازِمَ النَّارِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِى الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِى يُوقِدُهَا لاَ يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً ...

مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِى كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِى مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ(أبوه) : أَىْ بُنَىَّ لَيْسَ فِى ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَلاَّ وَاللَّهِ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، قَالَ: فَخَافَنِى فَجَعَلَ فِى رِجْلَىَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِى فِى بَيْتِهِ .. ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِى أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ (خاتم النبوة) الَّذِى وَصَفَ لِى صَاحِبِى، فَلَمَّا رَآنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّى أَسْتَثْبِتُ فِى شَىْءٍ وُصِفَ لِى، قَالَ: فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِى .. " [صححه الألباني]

قادة الفرس وجند الإسلام

والذي يؤكد فساد أكاسرة الفرس وكبرائهم وعدم أهليتهم لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين نكتفي بذكر موقف كسرى من دعوة الإسلام ، ومقارنة بين قادة جنده وجند المسلمين العرب .

كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وبعث الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي فيه " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيّاً أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس " [صححه الألباني]

وبرغم الدعوة الكريمة من النبي لكسرى فإن كسرى مزَّق كتاب رسول الله ، ويروى أن رسول الله ﷺ لما بلغه ما صنع كسرى أبرويز بكتابه قال : مزق الله ملكه .

هذا موقف ملك الفرس من الحق إذ جاءه ، وموقفه من رسالة السماء عندما بلغته فبدلاً من أن يتدبر الأمر ويستشير أهل الرأي ويقول لهم كما قالت ملكة سبأ عندما بلغتها رسالة سليمان : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٢٩] وإن لم يؤمن بما جاء في الرسالة فعلى الأقل يحترم الرسالة ويقدِّر من أرسلها والرسول الذي حملها ، ولكنه أخذته العزة بالإثم فمزق الرسالة !!

أما المقارنة بين قادة الفرس وجند العرب المسلمين فتتجلى في الموقف التالي الذي ذكره المؤرخون .

لما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه.

فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز.

فقال له رستم: فما هو ؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا ؟ ! وأي شيء أيضاً ؟ قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله .

قال: وحسن أيضاً . وأي شيء أيضاً ؟ قال: والناس بنو آدم وحواء ، فهم أخوة لأب وأم، قال وحسن أيضاً .

ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضاً.

قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه .

قالوا: ثم بعث إليه سعدٌ رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم ؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن

قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم ! كم أحب إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت ؟ قال ! لا: ولكنْ المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟

فقالوا معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلاً فبعث إليهم حذيفة بن محصن فتكلم نحو ما قال ربعي.

وفي اليوم الثالث المغيرة بن شعبة فتكلم بكلام حسن طويل.

قال فيه رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخولكم أرضنا كمثل الذباب رأى العسل. (١)

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ٧ ص ٤٦ ، ٤٧ .

أعرفتم لماذا لم يختر الله تعالى نبي آخر الزمان من الفرس واختاره من العرب .

الإمبراطورية الرومانية والاضطهاد السياسي و الديني

فإذا جئنا إلى الإمبراطورية الرومانية فسنجد إنها لم تكن أفضل حالاً من الفرس فقد كانوا طغاة باطشين يسومون البلاد التي احتلوها سوء العذاب ينهبون ثرواتها ويجبرونها أهلها على عبادة إمبراطورهم ، حتى بعد أن تنصَّروا أفسدوا دينهم وحرَّفوه وحاولوا فرضه بالقوة على من خالفهم مذهبهم الكاثوليكي ، ويكفي أن نعرف سيرتهم في المصريين لنعرف مدى ما وصلوا إليه من كفر وطغيان .

لقد بدأ الاضطهاد الرسمي للمسيحيين في عصر الإمبراطور نيرون (٥٤- ٦٨م) الذي قام بإحراق مدينة روما ثم ألصق تهمة إحراقها بمسيحيي روما ، وانهال الإمبراطور وجنده وأتباعه على المسيحيين قتلاً وتنكيلاً في أبشع صورة.

وبعد ذلك بفترة تابع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (١٩٣-٢١١ م) موجة الاضطهاد ضد المسيحيين ؛ فقد أصدر قراراً بضرورة سجود جميع المواطنين في الولايات الرومانية لتمثاله وإحراق البخور عند قدمي التمثال ، وكان عقاب من يعصي الأوامر الإمبراطورية الموت بقطع الرأس ، أو بتقديمه طعاماً للأسود ، أو بالحرق حيّاً ، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق المدرسة الدينية المسيحية في الإسكندرية ونكَّل بالمسيحيين المصريين تنكيلاً ، وظلَّ الأمر على نفس الحال التعسة إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥ م) الذي عرف بعصر

الاضطهاد الأكبر للمسيحيين خاصة مسيحيي مصر ؛ فقلد أصدر دقلديانوس مرسوماً إمبراطوريّاً بهدم الكنائس ، وحرق الكتب المقدسة ، وإعدام كل من يتبع التعاليم المسيحية سرّاً أو جهراً وقد بلغ عدد شهداء المسيحيين في مصر ١٤٤.٠٠٠ شهيد ، ويقدر بعض الدارسين هذا العدد بحوالي ٨٠٠.٠٠٠ شهيد ، وبسبب هذا الاضطهاد الوبيل اعتبر المصريون أول سنة من حكم الإمبراطور دقلديانوس وهي سنة ٢٨٤ م بداية التقويم القبطي ، وعرف هذا التاريخ باسم " عام الشهداء " . (١)

صور المقاومة المصرية للاضطهاد الروماني

لقد قاومت مصر الغزاة الرومان بكل ما تيسر لها من أسلحة : قاومتهم بالعتاد الحربي ، واستماتت في الدفاع حتى إذا ما غُلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التي جعلت من الوادي جحيماً لا يطاق ، فإذا ما أخمدت الثورة لجأت إلى حرب العصابات ، فإذا ما أعوزها السلاح لجأ فلاحوها إلى العصيان المدني ، أو الإضراب العام أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار في الأدغال أو مجاهل الصحراء .

فإذا ما أعيتها الحيل لجأت إلى سلاح آخر بتَّار : لجأت إلى المقاومة السلبية فبذرت بذور الكراهية للمحتلين عن طريق المنشورات السياسية أو رفضت التعاون مع الغاصبين ، ولم تتأثر بثقافتهم أو تأخذ بأساليب معيشتهم أو تؤمن بآلهتهم بل اتخذت من تراثها الموغل في القديم ،

(١) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مطابع الأهرام التجارية . ص ٢٣٩ .

وديانتها الأصيلة وكبريائها الوطني دروعاً تتقي بها شتى المؤامرات التي كانت كلها بالرغم من طول فترات الاحتلال كالزبد الطافي الذي يذهب هباءً . (١)

***

(٢) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " ص ٢٠٠